١٦٥١٩

مجله	الازهر
تاريخ نشر :	ذی الحجة ١٣٩٦
شماره .	١٠ سال ٤٨
شماره مسلسل	
محل نشر	قاهره
زبان	عربی
نویسنده	ابراهيم ابو الخشب
تعداد صفحات	١٦٧٩ - ١٦٨٢
موضوع	اشتر دالضلالة
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحظات	کد ن

١٦٨٤ ١٦٧٩٠
٤٨,١٠
ذو الحجة ١٣٩٦

مع أدب القرآن :

اشتروا الضلالة

لفضيلة الدكتور إبراهيم أبو الخشب

— ٦ —

هؤلاء المنافقــون الذين تأرجحت بهم الارادة ، وتذبذبت بهم الطباع، ولعبت بهم الأهواء ، وعبثت بهــم الشياطين ، فلم يستطيعوا أنيلتزموا حــدا ، أو تقف بهم أقدامهــم على أرض صلبة لا تهتز تحتهم ،أوتميد بهم ، اذ كانوا على أحوال متباينة ، وأشكال متناقضة ، يتابعهم الخزى، ويلاحقهم العــار ، ويفضح أمورهم التلون الذى لا يقربهم على عقيدة، ولا يثبت بهم عند حقيقة واحدة ، من حــق الانســانية أن تعــاملهم بمقتضاها ، أو تحاســبهم عليهــا ، يصفهم الله سبحانه بأنهــم اشتروا الضلالة بالهدى ، وهو صنيع يدل على الحمق ، وينبىء عن السفه ، ويــوحى بالطيش ، ويخفى وراءه ما كانوا عليه من قلة التمييز ، وعدم الادراك ، وخطــل الرأى ، وخطــأ الفهم ، وأن آدميتهم الرخيصة نزلت بهم الى مصاف العجماوات التى فقدت خواص الترجيح والاختيار والميــل الى جانب الخير من الأشياء ، لأن العاقل لا يشترى الا ما ينفعه ، ولا يطلب الا ما كان فيه صلاحه وفلاحه، وغنمه وخيره ، أما اذا انحــدر به طبعه ، وجمحت به نفسه ، وأسفت به غايته،وخانه ذوقه وعقله،وضميره ووعيه ، وتفكيره ورأيه ، وآثر جانب الشر على جــانب الخير ، وناحيــة الهلاك على ناحية السلامة والنجاة ، فذلك من المرضى من غير شك،وهذا المريض أو هؤلاء المرضى الــذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجــارتهم ، يحملون وحــدهم وزر ضلالهم ، وجريمة انحرافهم ، وسوء مصيرهم لأن الله جل وعلا لم يتركهم سدى ، ولم يخلقهــم همــلا ، ولم يجردهم من وسائل الهــداية ، ولم يحل بينهم وبين أســباب النجــاة .

والفوز .. ولهذا يصور أحوالهم المتخبطة ، وشئونهم المتضاربة ، فى أمثلة من الحمق والسفه تجعلهم أحقر من لا شيء — كما يقولون — فهم أمام النار التى قد أضاءت لهم مواضع أقدامهم ، ومسالك أموزهم ، ومسارب عيشهم ، وسبل الخير الذى كان من حق الناس أن يبتغوه ، ومن شأن الآدميين أن يطلبوه « فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون » وما كان بهم من عمى ينحرف بهم عن السبيل، أو يجعلهم يضلون الطريق ، وانما هو العناد والطيش ، والصدود والاعراض ، وعدم استعمال قواهم المدركة ، وبصائرهم النافذة، وعقولهم المميزة ، وافكارهم المرجحة، وأفئدتهم الدالة ، كأنهم كانوا قد فقدوا الوسائل وهنالك استحالت عليهم الغاية ، وليس هنالك أبلغ فى معنى الطيش والحمق ، والسفه والنزق ، من أن تتهيأ للرجل الوسيلة ثم لا يجعلها سبيلا الى غايته، أو طريقا الى هدفه ، أو سلما الى غرضه .. ويقول المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا
كنقص القادرين على التمام

وقد كانت القدرة على التمام موفورة لهؤلاء . والنار التى استوقدوها هى العقل الذى أودعه الله فى الانسان أو القرآن الذى أنزله الله على رسوله يدعوهم به الى الهداية ، وينابيهم الى الصواب ، ويقودهم الى الحق ، ويرشدهم الى الصراط المستقيم ، لكن اعراضهم وعنادهم ونفورهم وعدم استعدادهم للاصاخة والتلقى بوأهم لعنة الله ، وغضب رسوله ..

والمثل الثانى الذى صور القرآن به حالهم الحقيرة ، وموقفهم الذليل، وصنيعهم المرذول ، ورأيهم الآفن هو قوله تبارك وتعالى: «أو كصيب» والصيب المطر المنحدر من السماء دون هوادة أو انقطاع . وهو الذى يحيى به الأرض من بعد موتها ، وشبهت به هذه الشريعة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد، ولا يشك عاقل حصيف فى أن للقرآن تلك الخصائص لانه

دستور الحياة وقانون السماء ونظام العمران ، ودليل الخير ، وعنوان السعادة ، وبشير اليمن ، ورصيد الهداية ، ومعلم الانسانية ، لا ينشد أحد أسلوبا للبر، ولا طريقا للرشاد ، ولا سبيلا للنجاح، ولا دربا يوصل الى أنبل الغايات ، الا وجده دالا عليه، وموجها اليه، ومبينا له ..

وربما كان المقصود من الظلمات والرعد والبرق التى كانت تشيع الرعب فى نفوسهم ، والقلق فى أفئدتهم ، والفزع فى ضمائرهم ، الى الحد الذى كانوا معه «يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » هو ما كان يتضمنه من وعيدهم بالمصير الذى يترقبهم ، والنهاية التى تنتظرهم ، والعاقبة التى تلاحقهم ، وقد كانوا لتذوقهم بلاغته ، وادراكهم للحد الذى يصل اليه من التأثير والروعة يشعرون كأن جهنم تفتح فاها لتبتلعهم ، وأن عذاب الله يناديهم ، وأن الجحيم يحيط بهم من أيمانهم وشمائلهم وفوق رؤوسهم وتحت أرجلهم، وكانوا هكذا من غير وعى ولا ادراك يخرجون عن وقارهم ، ويغيب عنهم تناسك أجزائهم ، وتناسق أعضائهم ، فيخذهم الفزع والهلع كأنما هى أمام الأمر الواقع « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » وعلى الرغم من أن هذه الحالة عنوان على فقدان الوعى ، وذهاب الادراك، وحيرة العقل ، فان الله لم يفقدهم هذه المعانى ، ولم يجردهم تجريدا بحتا من تلك القوى ، وقد كان هذا البرق الذى يضيء لهم يملأ يقينهم بأنهم وقد مشوا فيه سلكوا الجادة ، واهتدوا الى الغاية ، واتجهوا الى الحق ، فاذا أظلم عليهم قاموا ، ولا يضارع هذه الحيرة بين الاقدام والاحجام ، والمضى والعودة ، والاطمئنان والاضطراب ، والسكون والقلق ، الا هذه الصورة التى تجىء بها الآية: «كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا » ويعرف لها قدرها من الايلام أو العذاب هذا الذى يسير فى مغارة مظلمة لا دليل

له يرشده ، ولا أنيس معه يسلبه ، وهو مع هذه الحال التى يسيطر عليها الذعر والخوف ، يبدو له الضياء فيمشى ، ويفارقه فيقف ، ولو أنه فقد هذا الضياء الذى يلوح له تارة بعد أخرى لكان ذلك راحة له ، لأنه يقطع أمله فى المضى ، ويجعل له الحجة فى عدم مواصلة السير « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » لكنه أراد وهى وسائل النجاة ، وأسباب الهداية ، أن تكون أسباب حيرتهم ، وعوامل قلقهم ، ودواعى شقاوتهم وايلامهم ، لأنهم حولوها عن الصراط السوى ، فجعلها حجة عليهم ، أو عدوا لدودا يناصبهم الشر ، أو يبيت لهم الكيد والأذى ، وهكذا كان الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز يضرب الأمثال للناس ارشادا لهم ، وتهذيبا لعقولهم ، وترقيقا لأفئدتهم ، وتوجيها لقلوبهم ، وتصحيحا لمسيرتهم ، ليختاروا سبيل الرشد ، وطريق الحق ، وجانب الخير ، وسعادة الدارين ، حين يستجيبون له ، وينزلون على ارادته ، ويؤمنون برسله ، الا أنهم كانوا يتمردون على الحق ، ويحاربون المنطق ، ويجادلون بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، ويقاومون الفطرة ، فى حين أن دعوة الله كانت دائما أبدا تؤيدها الفطرة ، ويؤازرها العقل ، ويواكبها المنطق ، ويساندها الحق ، والاعراض عنها لا تؤيده حجة ، ولا يقره صواب ، أو يعترف به رأى ولا ذوق .

د/ ابراهيم على ابوالخشب